من أوهام السيوطيّ التُّرجُميّة واللّغويّة

عبد القادر سلاّمي*

مقدمة

ترمي هذه الدراسة إلى مراجعة بعض ما أصبح مألوفاً في عرف الدارسين القدماء والمحدثين من نسبة بعض المصنّفات خطأ إلى بعض الأسلاف والنّظر في أمر الاقتباس من بعض ما صحَّت نسبته إليهم منها بما لا يعكس وجهة نظرهم في بعض الظواهر اللغوية في شيء.

على أن الوقوف على بعض آثار الأصمعي وأبي عليّ القالي لتبرئتهما ممّا علق بهما وفق رؤية فاحصة للموروث اللغوي العربي الذي نعتزّ بالانتساب إليه دون تزيُّد أو استهانة، كفيلٌ بإنصافهما ممّا نُسب إليهما على سبيل التوهّم أو اعتماداً على رأي بعض الآحاد.

ترجمة السيوطي

هو جلال الدِّين أبو الفضل عبد الرَّحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدِّين بن الفخر عثمان بن ناظر الدِّين محمد بن يوسف الدِّين بن نجم الدِّين أبي صلاح

* أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة تلمسان – الجزائر.

أيوب بن ناصر الدِّين محمد بن الشَّيخ الهُمام الخُضَيْري[1] الأسيوطي.[2] وجلال الدّين لقبه، وكنَّاهُ شيخُه العزّ الكناني الحَنْبَلي (ت٨٧٦هـ) بأبي الفضْل.[3] وأطلق عليه حين ولادته في مستهلّ رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة ابن "الكُتب"،[4] وحُمِل بعدها إلى الشيخ محمد المجذوب (ت٨٥٩هـ) وهو من كبار الأولياء بجوار المشهد النَّفيسي، فبارك عليه ودعا له.[5]

نشأ جلال الدّين في بيت زهدٍ وعلمٍ وورع وتقوى، وأتمَّ حفظ القرآن الكريم وهو دون ثمان سنين. وقد أسندَ وصايته قبل وفاته إلى الكمال بن الهُمام (ت٨٦١هـ) الذي قرّره في وظيفة الشيخونية ولحظه بنظره.[6] أحضره والده مجلس الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) وله منه إجازة عامَّة، ولا يُستبَعْدُ أن تكون له منه إجازة خاصّة، من حيث كان والده يتردّدُ إليه ويُنوبُ في الحُكم عنه، وإنْ فاته حضُور مجالسه والفَوز بسماع كلامه، والأخذ عنه، فقد انتفع في الفنّ بتصانيفه، وأفاد منه الكثير.[7]

---

[1] نسبة إلى الخُضَيْريّة (تصغير خُضرة)، محلّةٌ ببغداد، تنسبُ إلى خُضير مولى صالح صاحب الموصل، كانت بالجانب الشَّرقي، وفيها سُوق الجرَار، سكنها الثِّقة محمد بن الطيّب بن سعيد الصبّاغ فنسب إليها فقيل الخُضيري. الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت، **معجم البلدان** (بيروت: دار صادر، د. ت)، ج١، ص٣٧٧-٣٧٨.

[2] الأسيوطي: نسبةً إلى أسيُوط: وهي مدينة غرب النِّيل من نواحي صعيد مصر. الحموي، **معجم البلدان**، ج٣، ص١٩٣. وقد جاءتهذه النسبة من قِبَل والده الذي ولد بأسيوط سنة 800هـ، ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذَهب في أخبار من ذهب** (بيروت: دار السيرة، ط٢، ١٩٧٩م)، ج٨، ص٥٢.

[3] ابن العماد، **شذرات الذّهب**، ج8، ص٥١.

[4] قال العيدروسي (ت1038هـ) في كتاب النُّور السّافر: "احتاج والده كتاباً من كُتُب العلم فذهبَت والدتُه لتُحْضِر الكتاب من بين الكُتب فجاءها المَخَاضُ بين كتب العلم فوضعتْهُ ولذلك أطلق عليه "ابنُ الكُتُب". عبد المعطي، فاروق، **جلال الدين السيوطي** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م)، ص٨-٩.

[5] السيوطي، جلال الدين، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، شرح وتعليق محمد أحمد جاد المولى وآخرين، (بيروت: دار الجيل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع)، ج١، ص١١، مقدمة التحقيق، وعبد المعطي، فاروق، **جلال الدّين السّيوطي**، ص٩.

[6] ابن العماد، **شذرات الذّهب**، ج٨، ص٥٢، والسيوطي، **المزهر**، ج١، ص١١، مقدمة التحقيق.

[7] السيوطي، **طبقات الحفاظ**، تحقيق علي محمد عمر (القاهر:ة مكتبة وهبة، 1973م)، ص٥٤٨.

واستمرت مسيرة السيوطي العلمية حيث استطاع أن يحفظ العُمْدة ومنهاج الفقه والفرائض والنَّحو على جماعة من الشيوخ الجِلَّة، منهم سراج الدّين البَلقيني (ت٨٦٨ هـ)، والشيخ شهاب الدِّين الشَّارِمْسَاحي،[1] وأبو زكريا يحيى بن محمد (ت٨٧٦هـ)، وعرضها على علماء عصره وعِدَّتُهمْ نحو مائة وخمسين أو يزيد، فأجازوه.[2] كما أُجيز بتدريس العربية في مستهلّ سنة ستّ وستّين وثمانمائة وهو ابن السابعة عشرة من عمره، فتمَّ له تأليفُ أوَّلِ كتابٍ صَحَّت نسبتُه إليه وهو "شرح الاستعاذة والبَسْمَلَة" عرضه على عليه شيخه علم الدّين البُلْقيني (ت٨٧٨هـ)، فكتب عليه تقريظاً.[3]

التقى السيوطي بأجلِّ العلماء وهو يطوف في حلّه الداخلي بالديّار المصرية بين الفيُّوم ودُمياط والمحلَّة، وفي ترحاله إلى الشَّام واليَمن والهند والمغرب والحجاز وحلَب،[4] فأثرى هذا التِّرْحال تجربته الحياتية وزاد في معارفه العلمية. وإذا كان السيوطي قد اشتغل طوال عمره بالتدريس والإفتاء، وتفرّغ للعلم والتأليف فيه، إلاَّ أنَّه بعد تقدّمه في السنّ ألَّف كتابه "التَّنفيس في الاعتذار عن الفُتيا والتدريس" واعتزل النّاس وتجرَّد للعبادة، عفيفَ النَّفس، كريم الْخُلُق قانعاً بما قسمه الله تعالى له من رزق حتّى كان يرُدُّ الهِبَات وعطايا الأمراء والوزراء.

قضى السيوطي نحبَه سنة ٩١١هـ، وكان مرضه سبعة أيَّام بوَرَم شديد في ذراعه اليُسرى. وكان له مشهدٌ عظيم، ودُفن بحوش قُوصون خارج باب القرافة، وقبره ظاهر وعليه قُبّة.[5]

---

[1] نسبة إلى شِرِمْسَاح، وهي قرية قريبة من ديمياط بصعيد مصر، قرب البحر المَلِح. الحموي، **معجم البلدان**، ج٣، ص٣٣٨.

[2] السيوطي، **المزهر**، ج١، ص١١، ١٥ (مقدمة التحقيق) وفاروق عبد المعطي: جلال الدين السيوطي، ص٩-١٠، ١٣.

[3] المصدر السابق، **المزهر**، ج١، ص١١ (مقدمة التحقيق)

[4] عبد المعطي، **جلال الدّين السيوطي**، ص١١.

[5] السيوطي، **المزهر**، ج١، ص١٩.

آثاره العلمية وموقع البغية والمزهر منها

توفّي السيُوطي عن عمر ناهز اثنتيْن وستّين سنة قضاها بين مدّ وجزر من أقدار سياسية متقبلة طبعت أواخر العهد المملوكي وحياة ثقافية وفكرية موازية امتازت بتشجيع السَّلاطين للعلماء وتقريبهم وخدمة الدّين تعظيماً له ولأهله، وطُبعت بالإقبال الشديد على تأليف الموسوعات الضّخمة، يضافُ إليها العناية بإنشاء المؤسسات التعليمية. وبذلك يكون السيوطي قد عايش حقبة كانت فيها سوق العلم رائجة بالرُّغم من تردّي الأحوال الاجتماعية والسياسية على السّواء.[1] فغادر هذه الدنيا مخلّفاً وراءه رصيداً معرفياً يشهد له بقوَّة الحافظة ونورانية الموهبة.

فقد رُزق التبَحُّر في علوم هي: التفسير، والحديث، والفقه، والنّحو والمعاني والبديع على طريقة العرب البلغاء لا على طريقة العَجَم وأهل الفلسفة. ودون هذه السبعة: أصول الفقه، والجَدَل، والتَّصريف، ودونها القراءات، ودونها الطّب. وأمّا علم الحساب؛ فهو أَعْسرُ شيء عليه وأبعدُه عن ذهنه، وقرأ شيئاً من علم المنطق، ثمَّ تركه، خاصَّةً وقد أفتى ابن الصَّلاح بتحريمه، فعوَّضه الله تعالى عنه بعلم الحديث الذي هو أشرف العلوم، و لم يُكثر من سماع الرِّوايَة لاشتغاله بالدِّرَايَة.[2]

كما خلّف العديد من المؤلّفات التي وصل إلينا الكثير منها إن لم نقل كلّها، وذكر إياس (ت.٩٣٠هـ) أن مؤلّفاته تبلغ نحو ستّمائة مؤلّف.[3] لقد كان في أوّل أمره مُلخِّصاً ومُختصِراً، ثم انتهى أمره إلى الاستقلال في التأليف والتّجويد والتّحرير. ونظراً إلى سعة حفظه وتطوافه، كان عالما موسوعياً، مما جعله يؤلّف الكثير في كلّ فنّ،[4] وقد

---

[1] عبد المعطي، فاروق، **مصر والشّام في عصر الأيوبيين والمماليك** (بيروت دار النهضة العربية، ، ١٩٧٢م)، ص٢٤٤- ٢٧٩.

[2] السيوطي، **طبقات الحفاظ**، ص١٣، **والمزهر**، ج١، ص١٤-١٥.

[3] المصدر السابق، ص١٤.

[4] عبد المعطي، **جلال الدين السيوطي**، ص٢٠.

انتشرت مؤلّفاته في سائر أنحاء العالم الإسلامي، وأقبل الطلاب والدّارسون على دراساتها، وشغلت فراغاً كبيراً في المكتبة الإسلامية خصوصاً في العصر العثماني الّذي قلّ فيه التّأليف.

فمن مؤلّفاته: الإتقان في علوم القرآن، والألفية في مصطلح الحديث، والبعث والنّعيم، وبغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة، وتاريخ الخلفاء، وتفسير الجلالين، وجمع الجوامع في النّحو، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، والخصائص الكبرى، والطب النّبوي، وطبقات الحفاظ، وشرح الصّدور في شرح حال الموتى في القبور، والمزهر في علوم اللّغة وأنواعها، ولبُّ الألباب في تحرير الأنساب، والمقامات، بالإضافة إلى مجموعة من الرّسائل المطبوعة وغيرها من المؤلّفات.[1]

أ. البغية ومنهج السيوطي فيها

يعدّ كتاب بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنّحاة من أهمّ ما خلّفه السيوطي في التّراجم، حيث ضَمَّ أخبار النّحاة واللّغويين المشهورين وغير المشهورين، "طالتْ أوْ قصُرَتْ، خَفيَتْ أخبَارُهم أو اشتَهَرَتْ، وأُوْرِدَ من فوائدهم وأخبارهم ومناظراتهم وأشعارهم ومروياتهم ومفرداتهم ما لَمْ يَجتَمع في كتابٍ، بحيث بلغَتْ المسودّة سبع مجلّدات اعتمدتْ بعد تنقيح تحت عنوان "بُغيَة الوعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة".[2]

وقد وضَّح السيوطي سبب تأليفه الكتاب بقوله: "فإنّي منذ نشأتُ وأنا أتشوّق إلى كتاب يجمع أخبارَ النّحويين؛ لمزيد اختصاصي بهذا الفنِّ؛ إذْ هو أوّل فنوني، والنّوع الّذي عُنِيتُ به قبلَ أنْ تجتمع شؤوني"،[3] "من حيث نظرتُ في كتب الطبقات

---

[1] سركيس، يوسف إلياس، **معجم المطبوعات العربية والمعربة** (القاهرة: مطبعة سركيس، ١٩٢٨م)، ج١، ص١٠٧٣-١٠٨١.

[2] السيوطي، **بغية الوعاة**، ج١، ص٣-٦.

[3] المصدر السابق، ج١، ص٣.

قبلي، فلم أرَ في ذلك ما يشفي العليل، ولا يسقي الغَليل، فجرَّدْتُ الهِمَّةَ في سنة ثَمانٍ وستّين وثمانمائة (٨٦٨هـ) إلى جمع كتاب في طبقات النُّحاة، جامعٍ مُسْتَوعبٍ للمهِمَّات، وعَمَدْتُ إلى التَّواريخ الكِبَار التي هي أصُولٌ وأمَّات، وما جُمع عليها من فُروعٍ وتَتِمّات، وطالعْتُ ما يَنيفُ على ثلاثمائة مجلَّدٍ"،[1] نحو "أخبار النحويين البصريين" لأبي سعيد السيرافي (ت٣٦٨هـ) و"مراتب النحويين لأبي الطيّب اللغوي (ت٣٥١هـ)، و"نزهة الألباء في طبقات الأدباء" لأبي البركات ابن الأنباري (ت٥٧٧هـ)، وكتاب "طبقات النّحويين واللغويين" لأبي بكر محمد بن الحسن الزُّبيدي (ت٣٧٩هـ)، و"التاريخ الكبير" للصلاح الصفدي (ت٧٤٦هـ)، و"الدُرَر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة" للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، و"طبقات أئمة اللغة" للقاضي مجد الدّين الفيروز آبادي (ت٨١٧هـ) صاحب "القاموس"، وغيرها من أصول أمّات الكتب.[2]

وقد سار السيوطي في كتابه على منهج خاص جمع بمقتضاه كل ما تضمَّنته المصادر الّتي اعتمد عليها من تراجم النّحويين طالت أو قصرت، فبلغت المسودّة سبع مجلّدات ولخّص منها طبقات في مجلّدة واحدة تحتوي على المهمّ من التراجم رتّبها ترتيباً خاصّاً ابتدأها بالمحمّدين ثم بالأحمدين تبركاً، ثم تلاها تراجم مرتبة على الحروف المعجم، وجعل في آخرها باباً في الكنى والألقاب والنّسب وإضافات مرتبّاً على الحروف وآخر في المؤتلف، وهو المتّفق خَطّاً المختلفُ لفْظاً، وثالثاً في الآباء والأبناء والأحفاد والأقارب والإخوة، ورابعاً في أحاديثَ منتقاة من الطبقات له، فعكف على تراث سابقيه شأن غيره من معاصريه ومن تقدمهم ابتداءً من القرن السّادس الهجري عندما اقتصرت جهود المؤلفين على التصرُّف في مصنّفات المتقدّمين، وذلك بإعادة إخراجها بجمع المادة منها، وبذلك حفظ كتاب" بغية الوعاة" طائفة من بقايا أصول ضاعت، فكان السّيوطي ينقل نقلاً موثّقاً بدقّة من

---

[1] المصدر السابق، ج١، ص٣.

[2] المصدر السابق، ج١، ص٣-٥.

حيث إنه نسب كلَّ مقبوسٍ لصاحبه عمَلاً منه بمقتضيات الأمانة.[1] فقد يذكر مثلاً: أحمد بن أبي بكر بن محمّد الخاورانيّ النَّحويّ الأديب أبي الفضل (ت٦٢٠هـ) الملقَّب بالمَجْد وبه يُعرف، ثمّ يُحيل على المصدر الذي أخذ منه مادَّته، فيقول مثلاً: "قال ياقوت: شابٌّ فاضلٌ، بارعٌ قيِّمٌ بعلْم النَّحو، مُحترِق الذَكاء"،[2] أو يذكرُ إسماعيلَ بن خَلَف بن سعيد بن عمران أبي الطَّاهر الصِّقلِّي (٤٥٥هـ) المعروف بالأندلسي النّحوي المقرئ، ويحيل دائماً على المصدر فيقول: "قال ابن خلكان: كان إماماً في علوم الآداب مُتقناً لفنّ القراءات".[3]

والملاحظ على كتاب البغية أن السيوطي اعتمد فيه بدرجة كبيرة على كتاب "معجم الأدباء" لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) و"وفيات الأعيان" لابن خلّكان (ت ٦٨١هـ)، وذلك إما لقرب عصر تأليفهما بعصره أوْ لغنى هذين الكتابين بتراجم النّحاة واللّغويين.

ب. المزهر ومنهج السيوطي فيه

يُعدُّ المُزْهِرُ في اللغة وأنْواَعِها من أحسن الكتب التي ألَّفَها جلال الدِّين السُّيُوطي، وقد جعلهُ مؤلِّفُه في خمسين نوعاً: ثمانيةٌ في اللغة من حيث الإسناد، وثلاثة عشر من حيث الأفاظ، وثلاثة عشر من حيث المعنى، وخمسة من حيث لطائفها ومُلَحُها، ووَاحدٌ راجِعٌ إلى حِفْظ اللغة وضَبْط مقاديرها، وثمانية راجعةٌ إلى حال اللغة ورُواتِها، ونوع في معرفة الشّعر والشّعراء، والأخير لمعرفة أغلاط العرب.[4] وصرح بأن له في ذلك فضل ابتكار الترتيب واختراع التبويب، فقال:

---

[1] ى جبر، **السيوطي، قراءة في مقدمات كتبه**، ج٥، ص١١-١٣.

[2] السيوطي، **بغية الوعاة**، ج١، ص٢٩٩.

[3] المصدر السابق، ج٢، ص٤٤٨.

[4] السيوطي، **المزهر**، ج١، ص٣ (مقدمة التحقيق).

"هذا عِلْمٌ شَريف ابتكرْتُ تَرْتيبَهُ واختَرَعْتُ تنويعهُ وتبويبَهُ؛ وذلك في علوم اللغة وأنواعها، وشروط أدائها وسَمَاعِها، حاكيتُ به علُوم الحديث في التقاسيم والأنواع، وأتَيْتُ فيه بعجائبَ وغَرَائبَ حسنَةِ الإبْداع. وقد كان كثيرٌ ممّن تقدَّم يُلِمُّ بأشياءَ من ذلك، ويعتني في بيانها بتمهيد المَسَالك، غير أنَّ هذا المَجمُوع لمْ يسْبِقْني إليه سابق، ولا طرَقَ سبيلَهُ قبلي طارقٌ، وقد سَمَّيْتُهُ بالمُزْهِر في علوم اللغة".[1] فدلَّ بذلك على أنَّ علوم اللغة هي أقلُّ بضائعه وأيْسُرُ صنائعه إذ أضافه لِمَا هو عليه من تبحُّر في علُوم شَتَّى، على نحو ما تقدَّم.

غير أن من المحقّقين المحدثين من لم يجد في صنيع السُّيُوطي على ضخامته إلاَّ الجمع والترتيب، عدا بدَوَات قليلة مبعثرة في ثنايا الكتاب، وفقرات قد يُقدِّمُ بها بين يدي الباب أو يختتمهُ، وليس أدلَّ على طريق المؤلِّف هذه من مقدّمة الكتاب؛ فقد ضمَّنَها مقدّمة كتاب الصّاحبي لابن فارس، وبعد أن أوردها، قال: "وبمثل قوله أقول في هذا الكتاب، وذلك حين الشُّروع في المقصُود بعَوْنِ الله المعبُود"،[2] الأمر الذي لا يحملنا على جُحود عمل المُؤلِّف ونُكران فضله؛ فلقد استوعب كتابُه كثيراً ممّا حَوتْهُ كتُبُ اللغة، وبذلَ مجهُوداً مشكوراً في ترتيب ما نَقَلَهُ ووضعَهُ في محلِّه؛ وذلك لا شَكَّ يَدلُّ على اطِّلاعٍ واسعٍ وإحاطَةٍ شَاملَة".[3]

غير أنَّ هذه النُّقُول التي أفادتْ ممّا وصل إليه ممّن لهم باعٌ في اللغة ومفرداتها وأمثالها وأسجاع العرب في كلامها، لمْ تَسلَمْ بعض عباراتها من البَتْر أو اختصار المُخلّ، أو الاستقراء النّاقص على نحو ما وقع لرأي أبي عليّ القالي في الأضداد في أماليه، على نحو ما سنعرض له في حينه.

---

[1] المصدر السابق، ج١، ص٢ (مقدمة الكتاب).

[2] المصدر السابق، ج١، ص٦.

[3] المصدر السابق، ج١، ص٤ (مقدمة التحقيق).

أولاً: نسبة كتاب في غريب القرآن إلى الأصمعي[1]

تعدّ كتب غريب القرآن[2] مثالا لمرحلة التأليف المستقل[3] وهي كتب تعنى بجمع

---

[1] هو عبد الملك بن قريب بن علي بن أصْمع بن أعيَا بن سعد بن عبد غَنْم بن قُتيبة بن مَعْن بن مالك بن أعْصُر بن سَعْد مناة الباهلي. وعن أبي حاتم (ت٢٥٥هـ): فهو الأصمعي عبد الملك بن قريب بن عبد الله بن علي بن أصمع بن مُطَهِّر (مظهّر) بن رباح بن عمرو عبد شمس بن أعيا بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن مَعد بن عدنان الباهلي أبو سعيد الأصمعي، البصري اللغوي.وقد أصيب الأصمع بالأهواز، وكان قد أدرك النبي ﷺ وكان أبو مطهِّر مسلما، ودُفِنَ بكاظمة على سيف البحر من البصرة على مرحلتين. ويعدّ الأصمعي أحد أئمة اللغة والغريب، والأخبار والمُلَح والنوادر،روى عن مشاهير عصره، فكان الأصمعي من أوثق الناس في اللغة، وأسرع الناس جوابا وأحضر الناس ذهنا. و لم يتَّهم الأصمعي في شيء من دينه، قال فيه الشافعي: "ما عبَّر أحد عن العرب بمثل عبارة الأصمعي" وقال ابن معين أبو زكريا البغدادي (ت٢٣٣هـ): "و لم يكن ممَّن يكذب، وكان من أعلم الناس في فنّه... و كان من أهل السنَّة ولا يفتي إلا فيما أجمع عليه علماء اللغة ويقف عما ينفَرِدُون عنه؛ ولا يجيز إلا أفصح اللغات.أمّا عن سنة وفاة الأصمعي ومبلغ عمره،على اختلاف بين أصحاب التراجم، فابن النديم يحدّد وفاته في سنة سبع عشرة ومائتين (٢١٧هـ) ويذكر قولا لأبي العيناء (١٩٠-٢٨٣هـ) فيقول فيه: "توفي الأصمعي بالبصرة وأنا حاضر في سنة ثلاث عشرةو مائتين (٢١٣هـ) وصلّى عليه الفضل بن أبي إسحاق، ولعلّها أرجح الروايات لقرب أبي العيناء منه عهداً. وآثار الأصمعي كثيرة، منها ما وصل إلينا ومنها ما لم يصل، وهي تربو عن الخمسين كتابا. (الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن، **طبقات النحو بين اللغويين**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ط٢، د. ت)، ص١٦٧-١٧٤ وابن النديم، محمد بن إسحاق، **الفهرست**، تحقيق مصطفى الشويمي (تونس: الدار التونسية للنشر، والجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٤٠٦هـ-١٩٨٥ م)، ص٢٤٩-٢٥٣،٤٠٣ و القفطي، جمال الدين بن أبي الحسن، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٥٢م)، ج٢، ص١٩٧-١٩٩، ٢٠٢-٢٠٣؛ وابن خلكان، أبو العباس شمس الدين، **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، د. ت)، ج٣، ص١٧٦-١٧١، ٣٧٩ والفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط** (مصر: مؤسسة فن الطباعة)، ج٤، ص١٧٤، مادة (كظم). على أنّ ما نُسبَ إليه من كتب في غريب الحديث والأنواء والأضداد ممّا لا نستطيع الاطمئنان إلى صحّة نسبته إلى الأصمعي ولعلّها من الكتب المنسوبة خطأً إليه. والأمر ينطبق على غريب الحديث والكلام الوحشي، نظراً إلى رأي الإمام أبي داود السّجستاني (ت٢٧٥هـ) في الأصمعي، وهو صاحب السّنن والتصانيف المشهورة، حيث قال فيه: "صَدُوق، وكان يتّقي أن يفسر الحديث، كما يتّقي أن يفسر القرآن". (السيوطي، **بغية الوعاة**، ج٢، ص١١٢) ونظراً إلى"تحوُّبه من الكلام في الأنْواء"(ابن جني:الخصائص، ج٣، ص٣١١)، وكون كتابه في الأضداد قد تولى نشره المحقق أوغست هفنر وطبع في المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩١٣م، مع كتابي السِّجستاني وابن السكيت في الأضداد والذيل للصغاني ضمن ثلاثة كتب في الأضداد، لم يروه المحقّق عن الأصمعي إلاّ عن طريق الرواية أو الإملاء على نحو ما فُعِلَ بكتاب العين للخليل، وذلك بقوله:"كتاب الأضداد عن الأصمعي" (**ثلاثة كتب في الأضداد** للأصمعي وللسجستاني ولابن السكيت، ويليها ذيل في=

الألفاظ التي تبدو غريبة على القارئ في القرآن الكريم. ويعزى أول كتاب في غريب القرآن إلى الصحابي عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (ت٦٨هـ)[٣] الذي عرف عنه أنه كان يسأل عن معاني مفردات القرآن الكريم، فيفسرها تفسيراً لغوياً مستشهداً في شروحه تلك بأدلة من الشعر العربي القديم.[٤]

ثم تعاقبت كتب كثيرة في غريب القرآن لأبي سعيد أبان بن تغلب بن رباح البكري (ت١٤١هـ)،[٥] وعليّ بن حمزة الكسائي (ت١٨٩هـ)،[٦] والنّضر بن شُمَيل (ت

=الأضداد للصّغاني، نشر أوغست هفنر (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩١٣م)، ص٥.

=[1] تجدر الإشارة هنا إلى أن الأسماء الثلاثة (غريب القرآن، ومجاز القرآن، ومعاني القرآن) مترادفة أو كالمترادفة في عرف المتقدمين، وقد وهم كثير من الباحثين المتأخرين، فقالوا: إن مجاز القرآن من كتب البلاغة لا من كتب التفسير، وهو خطأ شائع. ابن قتيبة، **تفسير غريب القرآن**، تحقيق السيد أحمد صقر (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، من مقدمة التحقيق، ص (ج).

=[2] آل ياسين، محمد حسين، **الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث** (بيروت: مكتبة الحياة، ط١، ١٩٨٠م)، ص٨٤ - ١٤٦.

[3] حسين نصار، **المعجم العربي نشأته وتطوره** (القاهرة: دار مصر للطباعة، ١٩٥٦م)، ص٣٩. غير أنّ أبا هلال العسكري (ت٣٥٨هـ) عدّ أبا عبيدة معمر بن المثنّى (ت٢١٠هـ) أوّل من صنّف في غريب القرآن، أبو هلال العسكري، **من كتاب الأوائل**، اختار النصوص وقدّم لها وعلّق عليها محمد المصري (دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٤م)، ص٣٩٥. ولعل ما أورده ابن حجر العسقلاني (ت٨٦٢هـ) على تأخّره في كتاب الإصابة يقطع بصحة نسبته أوّل كتاب في غريب القرآن إلى ابن عباس رضي الله عنهما، حين قال: "وأولى ما يرجع إليه في ذلك، أي في تفسير غريب القرآن، ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه، فإنه ورد عنهم ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الصحيحة الثابتة". ابن حجر، أحمد العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٨هـ)، ج٢، ص٣٣١.

[4] آل ياسين، **الدرا سات اللغوية عند العرب**، ص٨٣، وكشلي، حكمت، **المعجم العربي في لبنان**، ص١٢. غير أن بعض الآراء تشكّك في نسبه الكتاب إليه، وتوحي أنه قد يكون من مرويات تلاميذه عنه. آل ياسين، **الدراسات اللغوية عند العرب**، ص١٤٧.

[5] السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، ج١، ص٤٠٤، ونصار، **المعجم العربي نشأته وتطوره**، ص٣٩-٤٠.

[6] ابن النديم، **الفهرست**، ص١٦٦.

٢٠٣هـ)،[1] ومحمد بن المستنير المعروف بقطرب (ت بعد ٢٠٦هـ)،[2] وأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت٢١٠هـ)،[3] وأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) وغيرهم.[4] ولكن لم يصل إلينا من تلك الفئة المتقدمة سوى كتاب مجاز القرآن[5] لأبي عبيدة (ت٢١٠هـ)، ومعاني القرآن للفراء (ت٢٠٧هـ)، ومعاني القرآن للأخفش الأوسط، (ت٢١٥هـ)، وتفسير غريب القرآن وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) وتفسير غريب القرآن لأبي عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السّجستاني (ت٣١٦هـ).

وقد نسب ابن النديم (ت٤٣٨هـ) كتاباً في "معاني القرآن" إلى الأصمعي (ت٣١٣هـ)[6] ولعلّ هذا هو الذي أوحى إلى السيوطي بالقول بأنّ للأصمعي كتاباً في "غريب القرآن"،[7] و لم يقل بذلك غيرهما، وهو ما نعتقد خطأ نسبته إلى الأصمعي.

فقد شكّك الدكتور حسين نصّار في نسبة كتاب في غريب القرآن إلى الأصمعي، وتابعه الدكتور حسين آل ياسين موافقا.[8] وهي نسبة لم يزعمها غير السيوطي، وذلك بناءً على ما نسب إلى الأصمعي من أنّه كان يتحرّح كثيراً في التعرض إلى ألفاظ القرآن بالشرح والتفسير.[9]

---

[1] نصار، **المعجم العربي نشأته وتطوره**، ص٤٠.

[2] ابن النديم، **الفهرست**، ص١٦٦.

[3] المصدر السابق، ص١٦٩، والزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن، **طبقات النحو بين اللغويين**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ط٢، د. ت)، ص١٧٦.

[4] ابن النديم، **الفهرست**، ص١٦٩.

[5] ورد في اللّمع في أصول الفقه تحت عنوان "المجاز في القرآن" أنّه من تصنيف أبي عبيدة. الشيرازي، أبو أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشافعي الفيروزآبادي، **اللّمع في أصول الفقه** (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م)، ص٨.

[6] ابن النديم، **الفهرست**، ص١٦٩.

[7] السيوطي، **بغية الوعاة**، ج٢، ص١١٣.

[8] آل ياسين، **الدراسات اللغوية عند العرب**، ص١٥٠.

[9] نصار، **المعجم العربي نشأته وتطوره**، ص٤٠ و السيوطي، **المزهر**، ج٢، ص٢٨٢.

ونجد في أنفسنا ميلاً إلى مثل هذا التخريج بما يقطع بعدم صحة نسبة كتاب في غريب القرآن إلى الأصمعي. فقد ورد في بيان إعجاز القرآن للخطّابي (ت٣٨٨هـ) قوله: "ومن هنا تهيّب كثيرٌ من السَّلف تفسير القرآن، وتركوا القول فيه حَذَراً أن يزِلُّوا فيذهبوا عن المراد، وإن كانوا علماء باللّسان، فقهاء في الدِّين؛ فكان الأصمعي، وهو إمام أهل اللغة، لا يُفَسِّرُ شيئاً من غريب القرآن. وحكي عنه أنّه سُئلَ عن قوله سبحانه: ﴿قَد شَغَفَها حُبّاً﴾ (يوسف: الآية ٣٠) فسكت وقال: هذا في القرآن، ثمّ ذكر قولاً لبعض العرب في جارية لقوم أرادوا بيعها: أَتَبيعُونها وهي لكم شِغَافٌ ؟ ولم يزد على ذلك أو نحو هذا الكلام".[1]

ووَرَدَ في المخصص لابن سيده (ت٤٥٨هـ) أنّ الأصمعي قال متحدّثاً عن أسنان أولاد الإنسان (وهو صاحب كتاب في خلق الإنسان)[2]: "هو أوّل ما يولد صبِيٌّ ثمّ طِفْلٌ، ولا أدري ما وقتهُ أي إلى إيّ وقتٍ يُقال له ذلك. أبو حاتم (وهو من القريبين زماناً من الأصمعي إذ توفي سنة ٢٥٥هـ): إنّما قال ذلك لأنّه في القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿ثمّ يخرِجُكُمْ طِفْلا﴾ (غافر: ٦٧)، وكان الأصمعي لا يفسِّر القرآن".[3]

كما أورد أبو بكر الزبيدي (ت٣٧٩هـ) في طبقاته ما يؤيد صحة ذلك حين قال الأصمعي فيما سمع عن العباس بن الفرج الرياشي البصري (ت٢٥٧هـ) (وهو من المتقدمين والمعاصرين للأصمعي عهداً) وهو يقول: "كان الأصمعي لا يجيء عبثه مع ذكر الإسلام... فكان إذا ذكر أصحاب الأهواء يحوط الإسلام، كما كان قليل الحديث بهذه الملاحاة التي في الشعر،[4] إذا لم يسمع من الشعر ما كان فيه هجاء، أو

---

[1] الخطابي، أبو سليمان أحمد بن محمد، **بيان إعجاز القرآن**، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرّمّاني والخطّابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتعليق محمد خلف الله ومحمد محمود زعلول سلاّم (القاهرة: دار المعارف، ط٢، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م)، ص٣٤.

[2] ابن النديم، **الفهرست**، ص٢٥٠؛ والسيوطي، **بغية الوعاة**، ص٢، ص١١٣.

[3] ابن سيده، أبو الحسن بن علي، **المخصص** (القاهرة: المطبعة الأميرية، بولاق، ١٣١٧هـ-١٣٢١هـ)، ج١، ص٣١.

[4] الزبيدي، **طبقات النحويين واللغويين**، ص١٧٠.

كان فيه ذكر النجوم، لقوله ﷺ: «إذا ذكرت النجوم فأمسكوا»، ولا يفسّر ما وافق تفسيره بعض ما في القرآن وهو ما شهد له به المبرد (ت٢٨٥هـ)، أحد معاصريه كذلك[1] وهو ما نقله السيوطي عنه بأمانة.[2]

فهل لنا بعد هذا الذي قدّمنا إلاّ أن نقول: أيعقل أن ينسب السيوطي إلى الأصمعي كتابا في غريب القرآن بعدما وقر لديه ما كان عليه الرّجل من الورع والتقوى والتحرّز في تفسير القرآن الكريم؟ غير مستبعدين في الوقت نفسه أن يكون قد صدر ذلك منه من باب الافتتان بشخص الأصمعي الذي كان يفسر لعلمه بغريب اللغة القرآن الكريم، إذ لا يستبعد أن يكون قد نما إليه ما تناهى إلى مسمع ابن جني من أمثلته. "ومن ذلك إنشادُ الأصمعي لشُعْبَة ابن الحجّاج قول فَرْوَة بن مُسَيْك المُرَاديّ:

فَمَا جَبُنُوا أنّى أشدُّ عليهم ولكن رأوا ناراً تَحُسُّ وتَسْفَعُ

فقال شُعبة: ما هكذا أنشدنا سِمَاكُ بن حرب، إنَّما أنشدنا: (تَحُشُّ) بالشّين معجمة. قال الأصمعي: فقلت: تَحُسُّ: تقتُلُ، من قوله تعالى: ﴿إذْ تَحُسُّونَهم بإذْنه﴾ (آل عمران: ١٥٢)، أي تقتُلُونَهم، وتحشُّ: تُوقَدُ. فقال لي شعبة: لو فَرغْتُ للزِمْتُه".[3] وهو ما حدا بابن جنّي إلى يبوّئه مكاناً مرموقاً من "باب في صدق النَّقَلَة، وثِقَةُ الرّواة والحملة" حين قال بشأنه: "وهذا الأصمعي –وهو صنَّاجةُ الرُّواة والنَّقَلَة، وإليه محطُّ الأعباء والقَلَة، ومنه تُجنَى الفِقَرُ والمُلَحُ، وهو ريْحانَةُ كلّ مَغْتَبِق ومُصْطَبَح– كانت مَشْيَخَةُ القُرَّاء وأماثلُهم تحضره –وهو حَدَثٌ– لأخذ قراءة نافع عنه. ومعلوم كم قدر ما حذف من اللغة، فلم يثبته؛ لأنّه لم يَقْوَ عنده، إذ لم يسمعه"،[4] أو لعلَّه من باب التزيُّد عليه أو من باب

---

[1] المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، **الكامل في اللغة والأدب**، تحقيق تغاريد بيضون ونعيم زرزور (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م)، ج٣، ص٢٧٥.

[2] السيوطي، **المزهر**، ج٢، ص٣٢٨.

[3] ابن جني، أبو الفتح عثمان، **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجّار (بيروت: دار الهدى للطباعة والنشر، ط٢)، ج٣، ص٢٩٢.

[4] المصدر السابق، ج٣، ص٣١١.

الاستقراء الناقص، "حتّى كأنّه لم يتأدّ إليه توقّفه عن تفسير القرآن وحديث رسول الله ﷺ وتحوُّبَه من الكلام في الأنْواء".[1] ولذا كان الاعتماد على سرد أسماء بعض مؤلفاته على يد بعض المترجمين كالسيوطي أمراً مورّطاً في الخطأ.

ثانياً: كون أبي علي القالي[2] من مُنكري الأضداد

عرّف اللغويون الأضداد بأنّها جمع الضِّدّ، وهو كلُّ شيءٍ ضَادَّ شيئاً ليغلبَه. فالبياض ضدُّ السواد، والموتُ ضدُّ الحياة، والسّخاء ضدُّ البُخل، والشّجاعة ضدُّ الجُبْن، إذا جاء هذا ذهب ذاك.[3] وقد جرى العلماء على التعبير عنه بصيغة الجمع في أكثر

---

[1] المصدر السابق، ج٣، ص٣١١.

[2] هو إسماعيل بن القاسم بن هارُون بنُ عَيْذُون بن عيسى بن محمد بن سليمان (مولى الخليفة عبد الملك بن مروان الأموي)، أبو عليّ البغداديّ، المعروف بالقالي، نسبة إلى "قالِي قلا "بفتح القَاف وبعد الألف لام مكسُورَة ثُمَّ ياي مثنَّاه من تحتها ثُمَّ قاف بعدها لام ألف، بلد من أعمال ديار بكر أو أرمينيَة. قال أبو بكر الزّبيدي (ت٣٧٩هـ) "وسألتُ أبا عليّ: لِمَ قيلَ لهُ القاليّ؟ فقال: لمَّا انْحَدَرْنَا إلى بعداد كنَّا في رُفْقَةٍ فيها أهلُ قَالَى قَلا، فكانُوا يُحافِظُونَ لمكَانِهم من الثَّغْر، فلمَّا دَخَلْتُ بغداد، انتسبْتُ إلى قَالِي قَلا، وهي قريَةٌ من مَنازجِرْد، ورَجَوْتُ أنْ أنْتفعَ بذلك عند العلماء، فمضى علَّي القالي". وقدِمَ أبو عليّ بغدادَ سنة ٣٠٣هـ، فأقام في المَوصل فكتب عن أبي يَعلى المَوْصليّ (ت٣٠٧هـ) وغيره. ثمّ دخلَ بغداد سنة ٣٠٥هـ فأقام بها إلى سنة ٣٢٨هـ، وقرأ النّحو والعربية والأدب وكتب الغريب والشعر وسمع الحديث عن مشاهير عصره. كانَ أحفظ أهلِ زمانه للغة، وأرْواهم للشّعر الجاهليّ، وأحفظُهم له، وأعلَمُهم بعلَل النَّحو على مذهب البصريين، وأكثرهم تدقيقاً له. خرج من بعداد سنة ٣٢٨هـ، فدخل الأندلس فقرطبة سنة ٣٣٠هـ، فأكرمه صاحبها إكراماً جزيلاً، وأملى كتابه" الأمالي" بها، وأكثر كتبه وضعها بها، وقرأ عليه النّاس كتب اللغة والأخبار والأمالي. وعظُمَتْ استفادتهم منه، ومدحه يوسف بن هارون الرَّمادي بقصيدة بديعة. روى عنه أبوبكر الزّبيدي (ت٣٧٩هـ) في طبقاته. توفيّ سنة ٣٥٦هـ بقرطبة. الزّبيدي: **طبقات النحويين واللغويين**، ٨٧،٧٥،٥٢،٣٦،١٨٧،١٢١،١٨٥-١٨٨؛ والسيوطي: **بغية الوعاة**، ج١، ص٤٥٣؛ وابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج١، ص٢٢٦-٢٢٨.

[3] الخليل، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، **العين**، تحقيق إبراهيم السامرائي ومهدي المخزومي (بغداد: دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م)، ج٧، ص٦، مادة (ضد)؛ وابن منظور، أبو الفضل جمال لدين بن مكرم، **لسان العرب**، إعداد يوسف خياط ونديم مرعشلي (بيروت: دار لسان العرب، ١٩٧٠م)، ج٣، ص٢٦٣، مادة (ضدد)؛ وأبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي، **الأضداد في كلام العرب**، تحقيق عزة حسن (دمشق: مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٦٣م)، ص١.

الأحيان، فهم يقولون عادة: "حرفُ (كلمة) كذا من الأضداد".[1] على أنّهم استعملوا كذلك صيغة المفرد، فقالوا مثلاً: "البَسَلُ: الحَرَامُ والحَلاَلُ ضِدٌّ".[2]

وكلمة "ضَدّ" نفسها، على ما ورد في كتب اللغة، من الأضداد؛ لأنَّ معناها: المثلُ والمُخَلفُ. قال قطرب: "ويُقالُ هذا ضِدُّه: أي مِثْلُه، والضِّدُّ: المُضَادُّ".[3] وعدّه ابن الأنباري (ت٣٢٨هـ) قولاً شاذّاً لا يُعَوَّلُ عليه، فقال: "والذي ادّعى مِنْ مُوافقة الضِّدِّ للمِثْل لم يَقُم عليه دليلاً تَصِحُ به حُجَّتُه؛ لأنّ المعروف في كلام العرب: العَقْلُ ضِدُّ الحُمْق، والإيمانُ ضِدُّ الكُفْر".[4]

وهو ما أكّده أبو الطيّب اللغوي (ت٣٥١هـ) حين ذهب إلى أنّ: "كلَّ ضِدٍّ ما نافاه".[5] كما أضاف خبراً تفصيلياً مفاده أن ليس كلّ ما خالف الشيء ضدّاً له، ألا ترى أنّ القوّة والجهل مختلفان وليسا ضدّين، وإنّما ضدّ القوّة الضّعف، وضدّ الجهل العِلْم. فالاختلاف أعمّ من التضادّ؛ إذ كان كلّ متضادّين مختلفين وليس كلّ مختلفين ضدَّين.[6]

وفي رأينا أنّ ما ذهب إليه ابن الأنباري صحيح؛ لأنّ أحد المعنيين في الذهن يستتبعُ عادةً استحضار الآخر، فيجبُ أن نأخذ هنا لفظ "الضِّدّ" بالمعنى الذي يفيد المخالفة؛ لأنّ الاصطلاح العلمي إنّما ينصرفُ لهذا المعنى وحده.[7]

---

[1] ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن قاسم، **الأضداد**، تحقيق أبي الفضل إبراهيم (الكويت: دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٦٠م)، ص٢٦٢.

[2] الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، ج٣، ص٣٤٥، مادة (بسل).

[3] قطرب، أبو علي محمد بن المستنير، **الأضداد**، تحقيق هانز كوفلر، **مجلة إسلاميكا**، المجلد ٥، ليبزج، ١٩٣٢م، ص٢٦٢.

[4] ابن الأنباري، **الأضداد**، ص٢٧.

[5] أبو الطيب اللغوي، **الأضداد في كلام العرب**، ج١، ص١.

[6] المصدر السابق.

[7] لجنة من العلماء السوفييت، **الموسوعة الفلسفية**، ترجمة سمير كرم (بيروت: دار الطليعة، ط٢، ١٩٨٠م)، ص٢٨١، مادة (الضدّ)؛ وفهمي منصور، الأضداد، **مجلّة اللغة العربية**، بالقاهرة، ١٩٣٥/٢م، ص٢٣١.

قال ابن السكّيت (ت٢٤٤هـ): "والضِّدُّ: خِلافُ الشّيءِ".[١] وقال ابن سيده (ت ٤٥٨هـ): "وضَدُّ الشّيء وضَديدُهُ: خِلاَفُهُ".[٢] وعلى هذا، فالعَرْضُ خلاف الطّول،[٣] وهما ضِدَّان؛ ومجيءُ هذا اللفظ وذهابُ ذاك يجعلُ التّضادّ يستمدُّ دلالته من مفهوم المغايرة الماثل في استعمال الأضداد. وهذه المعاني تحملنا على قيام تضادّ طبيعيّ بوصفه دالاًّ عل المعنى وضدِّه من كلمتين متباينتين يتّضح منهما أنّ التّضادّ الوارد بهذه الصّورة يمكنُ أن نسمِّه بالتّضادّ الخارجي. ولا نستطيع أن ندرجه في المشترك اللفظي؛ وهذا بسبب انطلاقه من جانب آخر في اللغة، فضلاً عن كونه لا يثيرُ لبساً ولا غرَابةً في محتواه.[٤]

هذا، وتُعدُّ الأضداد من الظواهر اللغوية التي أحدثها التقابل بين الدالّ والمدلول، وهو نوعٌ من العلاقة بين المعاني ربّما كانت أقرب إلى الذهن من أيّ علاقة أخرى؛ لأنّ مجرّد ذكر معنى معيّن يدعو ضدّ هذا المعنى إلى الذهن. فعلاقة الضّدّية أوضحُ الأشياء في تداعي المعاني.[٥]

وقد عدّ القدماء الأضداد نوعاً من المشترك لقول ابن الأنباري مثلاً في صدر خطبة كتاب الأضداد: "هذا كتابُ ذكر الحروف التي توقِّعُها العربُ على المعاني المتضادَّة فيكونُ الحرف (الكلمة) منها مؤدِّياً عن معنييْن مختلفيْن".[٦] وعلى هذا فـَ "المشتركُ يقعُ على شيئيْن ضِدَّيْن وعلى مختلفيْن. فما يقعُ على الضِّدَّيْن كالجَوْنِ والجَلَل، وما يقعُ على

---

[1] التبريزي، الخطيب أبو زكريا يحيى بن علي، **تهذيب إصلاح المنطق**، تحقيق فخر الدين قباوة (بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٢م)، ص٧٩.

[2] ابن سيده، **المخصص**، ج٢، ص١٥٠، (باب المُخالفة والمُضادَّة) و الخليل، **العين**، ج٧، ص٦، مادة (ضد).

[3] ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشروالتوزيع، ١٩٧٩م)، ج٤، ص٢٢٩، مادة (عرض).

[4] بلقاسم، ليباريز، **النمو اللغوي من خلال لسان العرب** (باتنة: الزيتونة للإعلام والنشر، ١٩٨٩م)، ص١٢٧.

[5] إبراهيم، أنيس، **في اللهجات العربية** (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، المطبعة الفنية الحديثة، ط٣، ١٩٦٥م)، ص٢٠٧.

[6] ابن الأنباري، **الأضداد**، ص١.

مختلفيْن غير ضِدَّيْن كالعَيْنِ".[1] وإلى مثل ذلك ذهب سيبويه (ت١٨٠هـ)،[2] وقطرب (ت بعد ٢٠٧هـ)،[3] وأبو حاتم السّجستاني (ت ٢٥٥هـ)،[4] والمبرِّد (ت٢٨٥هـ)،[5] وابن فارس (ت ٣٩٥هـ)،[6] وأبو عليّ الفارسي (ت٣٧٧هـ)[7] وبعض المحدثين.[8]

ونحن مع ذلك لا نعني بالأضداد ما يعنيه علماءُ اللغة المحدثون من وجود لفظيْن يختلفان نطقاً ويتضادّان معنًى (Antonymy)؛ كَـ "فَوْق" في مقابل "تَحْتَ" أو "بَعيدٌ" و"قَريبٌ" وغيرها،[9] وإنّما نعني بها مفهومها القديم وهو اللفظ المستعملُ في معنييْن متضادَّيْن. وظاهرة استخدام اللفظ الواحد في معنييْن متضادَّيْن موجودة في كلِّ اللغات، وقد تعرّض لها بالدّراسة كثير من لغويي الغرب المحدثين؛[10] لأنّها لم تشغل من اهتمام المتقدّمين إلاّ القدر اليسير، ومن مناقشاتهم لها إلاّ بضعة أسطر.[11]

---

[1] السيوطي، **المزهر**، ج١، ص٣٨٧.

[2] سيبويه، أبو عمرو بن عثمان بن قنبر، **الكتاب**، تحقيق عبد السلام هارون (بيروت: عالم الكتب)، ج١، ص٢٤.

[3] قطرب، **الأضداد**، ص٢٤٤.

[4] السّجستاني ، أبو حاتم عبد الله بن الأشعث، **الأضداد**، ضمن ثلاثة كتب في الأضداد للأصمعي وللسجستاني ولابن السكيت ويليها ذيل في الأضداد للصّغاني، نشر أوغست هفنر (بيروت: ١٩١٣م)، ص٧٥.

[5] المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، **الكامل في اللغة والأدب**، تحقيق تغاريد بيضون ونعيم زرزور (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م)، **ما اتّفق لفظه واختلف معناه**، ص٣-١١.

[6] ابن فارس، **الصاحبي في فقه اللغة**، ص٩٩.

[7] ابن سيده، **المخصص**، ج١٣، ص٢٥٨-٢٥٩؛ والسيوطي، **المزهر**، ج١، ص٣٨٧.

[8] الصالح، صبحي، **دراسات في فقه اللغة** (بيروت: دار العلم للملايين، ط٩، ١٩٨١١م)، ص٣٠٧؛ وشاهين، وتوفيق، محمد، **المشترك اللفظي،نظريةً وتطبيقاً** (القاهرة: مطبعة الدعوة الإسلامية، ط١، ١٤٠٠هـ-/١٩٨٠م)، ص ١٣٣؛ وعمر، أحمد مختار، **علم الدلالة**، ص٣٠١-٣٠٣.

[9] Baylon, Christian &, Mignot, Xavier, *Sémantique du Langage* (Paris: Initiation-Editions Nathan, 1995), pp109-110.

[10] المرجع السابق، ص١١٠.

[11] عمر، أحمد مختار، **علم الدلالة** (الكويت: دار العروبة للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٠م)، ص١٩١-١٩٢، وعن أمثلة التضادّ باللغات الأوروبية، أولمان، ستيفن، **دور الكلمة في اللغة**، ترجمة كمال بشر (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط١٢، د. ت)، ص١٣٩؛ وفندريس، جوزيف، **اللغة**، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد قصاص (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٥٠م)، ص٢٦٧، ٢٧٥.

على أنَّ علماء العرب القدماء أفاضوا في الحديث عنها بين مُثبت له ومُنكر له مطلقاً. ولعلّ الدافع الحقيقي وراء مذهب الإنكار هذا هو انقلابُ اللغويين إلى المكاثرة والمنافسة في جمع الأضداد بعد أن كانت تتّسم بالقلّة والظّرافة، فإذا أمعنّا النَّظر في أغلب ما أحصاه قطرب[1] منها أمكننا وضعُ أغلبها في دائرة المشترك تارةً، وأخرجنا بعضها عنها أحياناً أخرى، والأبلَغُ منه تعسّفاً ما ذهب إليه قطرب من أنّهم "قالوا في التفسير: بَقَرةٌ صَفْرَاء أي:سَوداء"،[2] والشّاهد في ذلك قوله تعالى: ﴿بَقَرةٌ صَفْرَاءُ﴾ (البقرة: ٦٩)، وقوله عزّ وجلّ: ﴿جِمَالاتٌ صُفْرٌ﴾ (المرسلات: ٣٣). ولا يمكنُ أن نقف كثيراً عند تأويل الآيتين؛ لأنّ أدْنى تأمّلٍ يُخرِجُ اللفظ من باب الأضداد؛ لأنّه "يُقالُ جَمَلٌ أسْوَدُ: إذا كان جَسَدُهُ أسْوَدَ وأُذُنُهُ صَفْرَاء، وكذلك مَنْخِرُهُ وأَرْفَاغُهُ[3] صُفْرٌ فَهُوَ الأَصْفَرُ وهو كلامُ العرب".[4] وقال ابنُ سيده نقلاً عن أبي زيد (ت٢١٦هـ) قوله: "الأصْفَرُ من الإبل: الذي يَسُودُ أبْضُهُ[5] وتُنْفِذُه شَعْرَةٌ بيضاءُ".[6] ولعلَّ في ذلك ما يُفسِّرُ عدم ارتياح أبي حاتم وابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، وهما ممّن ألّف في الأضداد، إذ رأيا أنّه لا يعبّرُ عن هذه المختارات التي جمعوها تحت هذا الاسم، فألّف أبو حاتم كتاباً سمّاه "كتاب المقلوب لفظه في كلم العرب، والمُزال عن جهته، والأضداد"،[7] ثمّ سار على هديهما نفرٌ من الدّارسين المحدثين.[8]

---

[1] أحصينا في كتاب قطرب خمسة وخمسين ومئة من الأضداد.

[2] قطرب، **الأضداد**، ص٢٧٨.

[3] الأرفاغُ: أصول الأفخاذ، الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، ج٣، ص١١٠، مادة (الرّفغ).

[4] السجستاني، **الأضداد**، ص١٠٢.

[5] الأبْضُ: باطنُ المِرْفق، الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، ج٢، ص١١٠، مادة (أبض).

[6] ابن جني، **المخصص**، ج٧، ص٥٥، (باب ألوان الإبل).

[7] السجستاني، **الأضداد**، ص٧٢؛ حماد، عبد الرحمن محمد، **عوامل التطور اللغوي** (بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط١،١٩٨٣م)، ص٧٩-٨١.

[8] أنيس، **في اللهجات العربية**، ص٢٠٤-٢٠٨؛ الرافعي، مصطفى صادق، **تاريخ آداب العرب** (بيروت: دار الكتاب العربي، ط٤، ١٩٧٤م)،ج١،ص٢٠٠-٢٠١؛ والسامرائي، إبراهيم، **التطور اللغوي التاريخي** (بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)،ص٩٨-٩٩؛ وفهمي، منصور، **الأضداد**، ص٢٤٣-٢٤٤.

على أنَّ الاعتدال إزاء ما ورد من ألفاظ التضاد في كتاب الله تعالى لم تكن كتب التفاسير منه خلاء، وآمالي القالي، أحدها. فقد ذهب السيوطي إلى أنّ أبا عليّ القالي، وهو تلميذ ابن دريد، يرفض القول بالتضادّ لقوله في أماليه: "الصّريمُ: الصُّبحُ سمّي بذلك؛ لأنّه انصَرم عن اللّيل، والصّريمُ: اللَّيْلُ؛ لأنّه انصَرَم عن النّهار وليس هو عندنا ضِدّا".[1] و"يتمسّك بأصل المعنى وهو القطع ولا يرى من الأضداد ما تفرّع عنه أو تداخل فيه".[2]

غير أنّ الاعتماد في رأينا على رواية السيوطي في الحكم على ما ذهب إليه أبو علي القالي من أمر الأضداد واعتماد الشّاهد الواحد أو الشّاهدَيْن[3] يعد استقراء ناقصاً لما جاء في مجموع كتاب الأمالي، ولا يعكس رأي أبي عليّ في التضادّ في شيء، وخاصّة أنّه يميل إلى الاعتدال في إثبات بعض نماذجه بما يُوافق السّماع أحياناً وبما يوافق رأياً صريحاً له فيه نحو قوله: "وقال أبو زيد: السُّدفةُ في لغة قيس الضَّوءُ وفي لغة تميم الظُّلْمَةُ، وأنشد بعضُ اللّغويين:

وَأَقْطَعَ اللَّيْلَ إذَا ما أسْدَفَا

أي أَظْلَمَ، وبعضُ اللّغويين يجعلُ السُّدْفَة اختلاطُ الضَّوْء بالظَّلمة مثل ما بين صلاة الصُّبْح إلى الفَجْر"[4] وقوله: "والجَلَلُ: الصّغير اليَسير، والجَليلُ العَظيمُ. وقال أبو نصر:

---

[1] القالي، **الأمالي في لغة العرب** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ج٢، ص٣٢٢ و السيوطي، **المزهر**، ج١، ص٣٩٧. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ ابن السيِّد البطليوسي (ت٥٢١هـ) عدّ لفظ "الصَّريم" من الأضداد، فقال: "ومن الألفاظ المُشتَركة الواقعة على الشَّيء وضِدِّه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ (القلم: ٢٠). قال بعضُ المفسِّرين معناه: كالنَّهار المُضيء، بيضاءُ لاشيء فيها. وقال آخرون: كاللَّيْل المُظْلِم سَوداءُ، لاشيءَ فيها. وكِلاَ القَوْلَيْن موجُودٌ في اللغة". **الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم**،تحقيق محمد رضوان الداية (دمشق: دار الفكر، ط٢،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص٤٢-٤٥.

[2] عبد الحميد الشلقاني، **رواية اللغة**، ص٣٣٩.

[3] السيوطي، **المزهر**، ج١، ص٣٩٧.

[4] القالي، **الأمالي في لغة العرب** (بيروت: دار الكتب العلمية،١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ج٢، ص١٢٦.

والجَلَلُ العظيمُ أيضاً.وقال أبو بكر الأنباري: وجدتُ في كتاب أبي عن أحمد بن عبيد عن أبي نصر كان الأصمعي يقول: الجَلَلُ الصّغير اليسير ولا يقولُ الجَلَلُ العظيم. قال أبو علي: قال الأصمعي: لا يُقالُ الجَلاَلُ إلاَّ في الله عزّ وجلّ. وقال أبو حاتم: وقد يُقال، وأنشد:

فَلاَ ذَا جَلاَلٍ هِبْنَهُ لِجَلاَلِه ولاَ ذَا ضَيَاعٍ هُنَّ يَتْرُكْنَ للفَقْرِ

وجُلُّ كلُّ شيءٍ العظيمُ منه.وقرأتُ على أبي بكر ابن دُرَيْد في كتاب الأبْوَاب للأصمعي: فَعَلْتُ ذَاكَ من جَلَلِ كذا وكذا أي من عِظَمِه في صدري. وقال أبو نصر: فَعَلْتُ ذَاكَ لِجَلَلِكَ وجَلاَلِكَ أي لِعَظَمَتِكَفي صَدْرِي، وأنشد الأصمعي لجميل:

رَسْمِ دَارٍ وَقَفْتُ في طَلِّه كِدْتُ أَقْضِي الغَدَاةَ مِنْ جَلَلِهُ[1]

ولا يكتفي أبو علي القالي بإيراد ما يوافق النّقل والسّماع في ضدِّيّة الجَلَل، بل يرمي إلى تسجيل رأيه الصريح بشأنه، فيقول: "والجَلَلُ: الصغير والجَلَلُ: الكبيرُ، وهو من الأضداد".[2] كما يفسر أبو علي القالي شعراً أنشده إيّاه أبو بكر بن دريد لأبي زيد حمل فيه الجَون على السَّواد:

لَهَـــا صَوَاهِلُ في صُمِّ السِّلاَمِ كمَا صَاحَ الْسيَّاتُ في أَيْدِي الصَّيَارِيفِ
كَـــأَنَّهُنَّ بِأَيْـــدِي القَوْمِ في كَبَدٍ طَيْـــرٌ تَكَشَّفَ عَنْ جُونٍ زَاحِيفِ

"وَصَفَ مَسَاحِيَ. السِّلاَمُ الحِجَارَةُ. والصَّيَارِيفُ: الصَّيَارِفَةُ، ثمّ شَبَّهَ المَسَاحِي في أَيْدِي الحَفَّارِينَ الذين يحفُرُونَ قَبْرَ عثمان ﷺ بطَيْرٍ تطيرُ عن إِبِلٍ جُونٍ مَزَاحِيف. والجُونُ: السُّودُ. والمَزَاحِيفُ: المُعِيِيَةُ، وإنّما جعلَها جُوناً لأنَّهم حَفَرُوا في حَرَّةٍ فشَبَّه الحَرَّةَ بالإِبِلِ السُّودِ".[3] ويضيف في موضع آخر من أماليه خبراً تفصيلياً وهو أنّ

---

[1] المصدر السابق، ج١، ص٢٥٠.

[2] المصدر السابق، ج٢، ص١٠٢.

[3] المصدر السابق، ج١، ص٢٨-٢٩.

"الجَوْن: الذي يضرِبُ إلى السّواد من شِدَّة خُضْرَتِه"[1] ثمّ يقول بضدِّيَة "الجَوْن". فـــ"جَوْنُها أَسْوَدُها، والجَوْنُ من الأضداد، يكون الأسْوَدَ ويكونُ الأَبْيَضَ".[2]

ومن هذا النّحو الذي أدلى فيه أبو عليّ القالي برأي صريح في إثبات الأضداد قوله: "والبَيْنُ: الوَصْلُ وقرأَ بعضُهم: ﴿لَقَد تقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ (الأنعام: ٩٤)، وقال أبو عبيدة: البَيْنُ: الوَصْلُ، والبَيْنُ الافتراق وهو من الأضداد"،[3] وقوله: " وقال أبو حاتم: يُقالُ للواحد والاثنين والجماعة والمؤنّث والمذكّر: بَسْلٌ بلفظ الواحد كما يُقالُ: رَجُلٌ عَدْلٌ وقَومٌ عَدْلٌ، والبَسْلُ في غير هذا: الحَلاَلُ وهو من الأضداد"،[4] وقال أبو علي: "وأَخْفَيْتُ الشَّيءَ أُخْفيه إخْفَاءً: إذا سَتَرْتَهُ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَكَادُ أُخْفيها﴾ (طه: ١٥)، وهي قراءةُ العامّة والنّاس. وروي عن سعيد بن جُبير أنَّه كانَ يقرأُ: ﴿أكادُ أَخْفيها﴾، أي: أظهرُها. وقال أبو عبيدة: أَخْفَيْتُ الشَّيءَ: كتمتُهُ وأَظْهَرتَه".[5]

وإذا كانت قد شملته إشارة السيوطي وابن الأنباري قبله[6]: "وقال آخرون: إذا وقع الحرفُ (الكلمة) على معنيَيْن متضادَّيْن فالأصل لمعنًى واحدٍ، ثمّ تداخل الاثنان على جهة الاتّساع. فمن ذلك: الصّريمُ، يُقالُ للّيل صَريمٌ، وللنّهار صَريمٌ؛ لأنّ الليل ينصرم من النّهار، والنّهار ينصرم من اللّيل، فأصلُ المعنيين من باب واحد وهو القطعُ".[7] فلا يتعدّى ذلك في رأينا حدود الإشارة التي لا تفيد الاستغراق. فقد ذكر السيوطي كذلك أنّ "في أمالي القالي: الجَادِي: السّائل، والمُعْطَى؛ وهو من الأضداد".[8]

---

[1] المصدر السابق، ج٢، ص١٨٠.

[2] المصدر السابق، ج١، ص١٠.

[3] القالي، **الأمالي في لغة العرب**، ج٢، ص١٣٤.

[4] المصدر السابق، ج٢، ص٢٨٣.

[5] المصدر السابق، ج١، ص٣١٤.

[6] الشلقاني، **رواية اللغة**، ص٣٣٩.

[7] الأنباري، **الأضداد**، ص٨.

[8] السيوطي، **المزهر**، ج١، ص٣٩٢.

أمّا ما نسبه إليه السيوطي أنّه قال: "النُّطفَةُ: الماءُ تقعُ على القليل منه والكثير، وليس بضدٍّ"،[1] فإنّنا لم نجد له أثراً في كتاب الأمالي،الذي بين أيدينا، ولم نقرأ لأحد ذكر القالي منكراً أو مثبتاً له. وإذا ثبت ذلك عن القالي فلنا أن نؤيِّدَهُ فيما ذهب إليه بدليل آخر، "وهو أنّ اللفظة إن كانت من الأضداد فينبغي أن تدلَّ على صفتي الكثرة والقِلَّة دون اشتراط أن يكون الماءُ هو الموصوف، أنّ تخصيصها بالماء فيجعله محور الدّلالة في اللفظ بمعزل عن وصفه بالكثرة أو القِلَّة، وبهذا لا تكونُ النُّطفَةُ من الأضداد".[2]

فهل لنا بعد هذا الذي سقناه من شواهد الأمالي أن ندّعي انتساب الرّجل إلى مذهب الإنكار ولو على سبيل الزّعم؟ أليس هو إلى الاعتدال أقرَب؟

خاتمة

لقد كان القصد من دراستنا تبرئة ساحة الأصمعي وأبي عليّ القالي ممّا علق بهما أوْ نَسَبَهُ إليهما السّيوطي على سبيل التوهّم أو الزَّعم، وذلك وفق رؤية جديدة للموروث اللغوي العربي الذي نعتزّ بالانتساب إليه. وإنّ ما سُقناه من شواهد لأبرز معاصريهما وما استقريناه من في مجموع ما صحّت نسبته إليهما من كتب كان كفيلاً، في رأينا، بإنصافهما. ويعضد ذلك الاستنتاجَ الأمورُ الآتية:

١. لئن كان السّيوطي قد رُزق التبَحُّر في علوم هي: التفسير، والحديث، والفقه، والنّحو والمعاني والبديع ودون هذه السبعة في المعرفة: أصول الفقه، والجَدَل، والتَّصريف، ودونها القراءات، ودونها الطّب، إلاَّ أنَّ التراجم كانت بضاعته فيها مزجتة نظرًا لما تردّى فيه من أوهام، نقلها دون تمحيص عن ابن النّديم، معتمداً في ذلك على الآحاد لأوّل عهده بالتأليف فيها، الأمر الذي قاده إلى الاعتقاد بنسبة

---

[1] المصدر السابق، ج١، ص٣٩٧.

[2] شاهين، **التضاد في القرآن الكريم بين النّظرية والتطبيق**، ص٢٠٦.

كتاب في غريب القرآن خطأ إلى الأصمعي، والأصمعي كما تدلّ على ذلك الشّواهد منه بَرَاء، وهو ما عبَّر عنه السيوطي بقوله: "فإنِّي منذ نشأتُ وأنا أتشوّق إلى كتاب يجمع أخبارَ النّحويين؛ لمزيد اختصاصي بهذا الفنِّ؛ إذْ هو أوّل فنوني، والنّوع الّذي عُنيتُ به قبلَ أنْ تجتمع شؤوني"[1]، فدلَّ بذلك على أنَّه انبرى للتأليف فيه أيَّام الحداثة، الأمر الذي يجعل كلُّ محاولة اجتهادية في هذا الباب محفوفة بالخطأ.

٢. إنّ أسلوب المكاثرة في التأليف الذي سلكه طوال اثنتيْن وستّين سنة، حيث ناهزت تصانيفه نحو ستّمائة مصنّف، وهو عدد ضخم، بالإضافة ما أنفقه في حفظ القرآن والتأليف والحلِّ والترحال وتصدُّر حلقات التعليم، كان مدعاةً للخرُوج به من فنٍّ إلى فنٍّ والأخذ من كلِّ علْم بطرفٍ دونما كبير تحكُّم، ذلك أنَّ "ازدحام العلوم مقلّلةٌ للفهُوم"،[2] و"كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل"[3]، الأمر الذي يبرّر تبحُّره في علوم ، والتراجم، لا شكّ، دونها.

٣. إنَّ استقرائه الناقص لمجموع أمالي القالي أو اعتماد الشّاهد الواحد فيها، هو الذي حال دون وقوفه على حقيقة رأي أبي علي القالي في الأضداد، والذي كان إلى الاعتدال أميل منه إلى الإنكار، وهو استقراء لا يقلُّ نُقصاناً عمّا قال به ابن جنّي قبله[4] افتتاناً بلغة العرب الشريفة لما فيها من "بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها وكيف فاوتَت العرب في هذه الألفاظ المُقتَرنة المتقاربة في المعاني، فجعلت الحرف الأَضْعفَ فيها والأَلْيَنَ والأخْفَى والأسْهَل والأهْمَس لما هو أدْنى وأقلُّ وأخفُّ عملاً وصوتاً، وجعلت الحرف الأَقْوى والأشدَّ والأظْهَر والأظْهرَ والأجْهرَ لما هو أقوى عملاً وأعظمَ

---

[1] السيوطي، **طبقات الحفاظ**، ص١٣، و**المزهر**، ج١، ص١٤-١٥.

[2] المغراوي، أبو جمعة أحمد، **جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلّمين وآباء الصِّبْيَان**، تحقيق أحمد جلّولي البدوي ورابح بونار (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٥م)، ص٣٩.

[3] ابن خلدون، عبد الرحمن محمد، **المقدمة**، تحقيق درويش الجويدي (صيدا/بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ط٢، ١٤١٦/١٩٩٦م)، ص٥٢٧.

[4] ابن جني، **الخصائص**، ج٢، ص١٦٤.

حسّاً"،[5] وإن كنّا لا نقوى على نسبة ذلك كلّه إلى ابن جني مذهباً من باب القول بالرمزية الصوتية، فكان وهماً آخر ينضاف إلى بعض أوهام السيوطي التي دلّلنا عليها آنفا.

٤. إنَّ العودَة إلى تراثنا العربي في التراجم واللغة لا يُمكنُ لها أنْ تكونَ، في تقديرنا، مجرَّدَ عَوْدَةٍ مَعْرفية أوْ وَصْفية فحسب، وإنَّما عَوْدَةً لا ينبغي أنْ تَنْفي أهميَّة إعمال الفكر فيما وصل إلينا منه، وما يرتبط بذلك من أدوات إجرائية تفي بتجديد الفكر العربي في قراءة التراث، الأمر الذي لا يُعدمُ أنْ تبيِّنَ التحقيقات المستقبَلية، خطأ نسبة أكثر من كتابٍ إلى السيوطي نفسه على سبيل التوهُّم، ممّا يجعل الاعتماد على بعض مؤلفاته في الحالِ والاستقبال مدعاةً للتثبُّت والحذَر.

إزاء هذه التَرِكة التاريخية، والتحولات الخطيرة، شَمَّر عددٌ من رجال الإصلاح عن سواعد الجدِّ، وخاضوا بكل ما يستطيعون من قوةٍ، كلٌّ حسب رؤيته وظروفه ومرجعيته، معركةَ إصلاح أحوال الأمة وإنهاضها، وتجديدها من داخلها، لكي تستطيع بسواعد أبنائها وجهودهم المخلصة أن تستعيد روحها الإسلامية الحقَّة، وشخصيتها الحضارية الفذَّة، وتمتلك من جديد القدرة على الفعل التاريخي، ولكي تتمكن في نهاية الأمر من دفع الاحتلال الأجنبي عن أراضيها، وتحقيق استقلالها، وسيادتها الفعلية الناجزة على كل الصُعُد والمستويات في حياتها، وتعود من جديد إلى مسرح التاريخ لتستأنف دورها الإنساني، والحضاري المتميِّز على مستوى العالم بأسره.

---

[5] السيوطي، **المزهر**، ج١، ص٥٣.